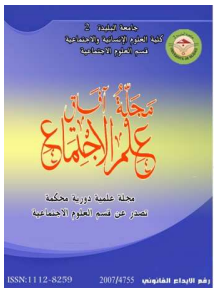

مجلة آفاق لعلم الاجتماع

ISSN : 1112-8259 EISSN :2600-6855

المجلد 10 العدد 1 / جويلية 2020

الأدب الشعبي كتراث حافظ لكيان المجتمعات المعاصرة

Folklore as a preserved legacy of contemporary societies

د. بن فرحات فتيحة [1]
جامعة البليدة2، الجزائر

د. زبوج سامية[2]
جامعة البليدة2، الجزائر

تاريخ الإرسال: 2020/02/06 تاريخ التقييم: 2020/02/10

تاريخ القبول: 2020/04/21

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة إشكالية الأدب الشعبي في المجتمع الجزائري باعتبار هذا الأخير من المقومات الأساسية للحفاظ على كيان المجتمع، إذ تم التركيز على التراث الشعبي بمحتوياته بالمجتمع الجزائري والذي يحمل العديد من المقومات والدلالات.

خلصت الدراسة إلى أن الأدب الشعبي بإمكانه الاستمرار في الحياة المعاصرة كحافظ لكيان الأمة في حالة ما إذا تم توظيفه من خلال القصة، المسرح ووسائل الإعلام سواء كانت مكتوبة أو مرئية أو سمعية.

الكلمات المفتاحية: أدب شعبي، تراث، ذهنيات شعبية، ثقافة ، دور اجتماعي.

Abstract:

This research aims to study the problem of folklore in Algerian society, as this is one of the basic foundations for preserving the entity of society. The focus was on folklore with its contents in the Algerian community, which carries many elements and indications.

The study concluded that folklore can continue in contemporary life as a guardian of the nation's state in the event that it is employed through story, theater and media, whether written, visual or audio.

Keywords: Folklore; heritage; folk fatty; culture; social role.

[1] د. بن فرحات فتيحة، جامعة البليدة2، الجزائر. rahildjawad@outlook.fr
[2] د. زبوج سامية، جامعة البليدة2، الجزائر zebboudjsamia@gmail.com

1- مقدمة

يعد الأدب الشعبي علما مستقلا بذاته، يحتل مكانة هامة في الدراسات الأكاديمية، وهو حقل جمالي نثري، متنوع في لهجاته وأشكاله ومضامينه تربطه علاقة جوهرية بين المبنى والمعنى، ينعت بأدب الأمة الشفوي أو العطاء القولي الذي يعبّر عن تجربة إنسانية جمعية، ويلتزم بالشكل الذي يفرضه هو نفسه كتنظيم ثابت ومنتظم من ناحية العطاء الفني المرتبط بالحياة المعيشية اليومية لأفراد المجتمع، كما أن شخصية وهوية الأمة تتبلور وتتحدد من خلاله، إنه يعكس قيم المجتمع وأنماطه السلوكية، وعاداته وتقاليده، ومواقفه الاجتماعية، نظرته إلى الحياة، الكون، الموت يعبر عن الحياة أولا ويعبر عن الإنسان الذي ينتمي إلى المجتمع ويؤثر فيه ويتأثر به.

ويتضمن أحاسيس وأفكار وآلام وآمال وأماني الشعوب باختلاف الزمان والمكان والتوجهات، وأداة الأدب الشعبي هي لغة وتفكير المجتمع الذي وجد فيه والتي لا يستطيع أن يحيد عنها، غايته الصدق وإبراز الحقيقة.

ويتضمن الأدب الشعبي مجموعة من الأشكال المتميزة من حيث الكم والكيف، تحمل في طياتها دلالات سوسيوثقافية واضحة عن مظاهر الحياة الاجتماعية ومنها القصص والأشعار والأساطير والنكت والحكم والأمثال والألغاز، والملاحم، والسير، والبوقالات... إلخ، ونلمس اهتماما خاصا ببعض أشكال الأدب الشعبي خاصة الأمثال الشعبية والشعر الشعبي والحكاية الشعبية، اهتمام جذب الدارسين والباحثين لما تتميز به هذه التشكيلة الهامة ولما تحمله من دلالات ورموز عن المجتمع الذي أنتجت فيه، فهي تزخر بكم هائل من الدلالات والشواهد الاجتماعية الخاصة بحياة وأحوال الإنسان، كما أنها تحمل تصورات عن أفراد المجتمع الرجل، الطفل، الشيخ، المرأة وغيرها من الموضوعات.

إنّ هذه الفنون القولية المعروفة باسم الأدب الشعبي تمثل رصيدا ثقافيا فاعلا لا يستهان به لما لها من مدلولات تاريخية واجتماعية ونفسية واقتصادية ودينية وجغرافية وأدبية وأسطورية وحضارية بشكل عام، مشبعة برموز وقيم ومفاهيم وأحكام الإنسانية، بل تمثل حصيلة المخيال الثقافي الشعبي لأي مجتمع من المجتمعات الإنسانية، وهي تحتل حجر الزاوية في معرفة الشعوب، فهي الصورة البكر أو العذراء لطبيعة الناس وتصوراتهم ومعتقداتهم وتناقضاتهم وحمولة ثقافية وفكرية لأفراد المجتمع أو الذاكرة المرجعية والجماعية التي عرفت انتشارا واسعا بين أفراد المجتمع، وقد أولى الباحثون والمشتغلون بميدان الثقافة الشعبية اهتماما كبير لهذه الأشكال كرصيد ومخزون ثقافي للمشهد الثقافي بشكل عام، فالمواضيع التي تحملها هذه الأشكال تتصل بالقيم الاجتماعية وبالعادات والتقاليد وبالوطن والأرض، والحياة والموت وبالسلوكات والتفاعلات والعلاقات الإنسانية، وقد تتمثل صورة الأفراد من الجنسين، وتعطي لنا رؤية ما عن التصور أو النظرة إلى الآخر، بتصوير عالمهم وأدوارهم ومكانتهم ورغباتهم وتطلعاتهم وهيئاتهم وغيره من التصورات والتمثلات الاجتماعية والثقافية.

ومن هنا سنقف عند مصطلح الأدب الشعبي ودلالته ومجاله، حيث عرفنا الأدب الشعبي وبينا أوجه الاختلاف بين الأدب (الشعبي، العامي، الفصيح) وذكرنا المقومات الرئيسية للأدب الشعبي وبعض أشكال التعبير الشعبي، ولم نغفل الدور الاجتماعي والثقافي لهذه الأشكال الأدبية ذات الارتباط الوثيق بالمجتمع الذي أنتجها لنختم المقال بسؤال جوهري يحتاج للمزيد من الاهتمام والبحث حول مدى حضور أشكال الأدب الشعبي في حياتنا المعاصرة؟.

2- مدخل للأدب الشعبي

بناءا على العديد من تعاريف المشتغلين والمهتمين بميدان الأدب الشعبي يمكن جمعه في التعريف الذي يرى أنه ذلك الأدب الذي أنتجه فرد بعينه ثم ذاب في ذاتية الجماعة التي ينتمي إليها مصورا همومها وآلامها في قالب شعبي جماعي يتماشى ونظرتها ومستواها الفكري والثقافي واللغوي، وموقفها الإيديولوجي إزاء المجتمع وبذلك فهو يعدّ ناقلا لأفكار الجماعة وللإيديولوجية الجماعية التي تتبناه (Ougoug Kezzal,1983 , p12)، وقد يختص هذا الناقل لإيديولوجية وأفكار الجماعة بالفصيح كما قد يتصل بالعامي، ويبدوا أن الأدب المتصل بالعامي هو المفسر للأدب الشعبي، والشعبي يتصل اتصالا وثيقا بالشعب إمّا في شكله أو مضمونه، وأي ممارسة اتصفت بالشعبية تعني أنها من إنتاج الشعب أو أنها ملك للشعب (سعيدي محمد، 1998، ص9)

والأدب الشعبي بذلك يمثل أدب الأمة الشفوي، سواء كان مجهول المؤلف أو معروفه، المعبر عن عواطفها وآمالها ونظرتها في الحياة، في شكل نصوص موروثة أو حديثة معروفة (عيلان محمد، 1999، ص 170)، والبحث في مجال الأدب الشعبي ما هو إلا بحث في قيم ومعايير وتقاليد وعادات المجتمع، إنه يمثل كيان ووجود أي مجتمع في الماضي البعيد أو القريب، يحافظ عليه المجتمع ويتداوله مشافهة وتدوينا، ليحمي هويته الثقافية المميزة والمستمرة عبر الأجيال وسط زخم هائل من التغييرات الدافعة إلى الضياع والطمس و نفي الخصوصية الثقافية التي قد يحفظها الأدب الشعبي ولا يظهر ذلك إلا عبر تفكيك وتحليل أشكاله المعبرة عن الهوية الثقافية لأي مجتمع من المجتمعات.

و يجمع الأدب الشعبي في طياته مجموعة من الأشكال الفنية، التاريخية والرمزية... مثل الأساطير، الأغاني، الخرافات، الشعر، الحكم... المتناقلة شفهيا من جيل إلى جيل، ومن فرد إلى فرد آخر... (Grèsle François et Autres, 1990, p 191.)، يعتمد اعتمادا كبيرا على الرواية والحفظ في انتقاله من جيل لآخر، لا ينال التغير من أصوله، ولكن ينال من تتابع الشكل الفني والمحتوى المضموني متلائما مع متغيرات الحياة الاجتماعية والسياسية من جيل إلى جيل معتمدا على أصول ثابتة في فنونه المختلفة (بدير حلمي، 2002، ص 19).

ونلاحظ ذلك مثلا على مستوى النكت الشعبية والشعر الشعبي في أيامنا، فرغم التغيير نجد مثلا أن النكت تساير الواقع الاجتماعي والسياسي خاصة، فهو متلائم معها معتمد على أصوله السابقة كشكل فني متميز وثابت.

ويؤكد جلّ الباحثين أن الأدب الشعبي في إنتاج أشكاله وفنونه [أغلب أشكاله] يعتمد أكثر على مجهولية المؤلف، فكل ما هو معلوم لا يدخل في هذا الباب، وقد يدخل في الأدب العامي، وهو مختلف عن الأدب الشعبي ويؤكد جلّ الباحثين أن الأدب الشعبي في إنتاج أشكاله وفنونه [أغلب أشكاله] يعتمد أكثر على "... مجهولية المؤلف، فكل ما هو معلوم لا يدخل في هذا الباب، وقد يدخل في الأدب العامي، وهو مختلف عن الأدب الشعبي..." (بدير حلمي، 2002، ص 16) وهذا طرح يحتاج إلى تعمق وبحث وافر للتمييز بين ما هو معلوم وما هو مجهول المؤلف، أو بين ما هو فصيح وشعبي وعامي في الدراسات الأدبية.

المهم هنا أن الأدب الشعبي في مرماه مرتبط بالحياة المعيشية اليومية لأفراد المجتمع، شخصية وهوية الأمة تتبلور وتتحدد من خلاله، إنه يعكس قيم المجتمع وأنماطه السلوكية، وعاداته وتقاليده، ومواقفه الاجتماعية، نظرته إلى الحياة، الكون، الموت... إلخ.

إن دراسة الأدب الشعبي لأمة من الأمم، هو بحث في حياتها الاجتماعية والسياسية، والثقافية والصورة التي يعطيها أدب الأمة الموسوم بالشعبي هي صورة ذات أجزاء دلالية وذات أجزاء متواضعة، لكنها صورة حية وصادقة، مصدرها وجدان الشعب، والعلم ذو الفطرة النقية، والبعيدة عن سيطرة الحكام والمستغلين (نمر حسن حجاب، 1992، ص 170)، لقد عبّر الأدب الشعبي عن واقع الناس ومختلف التجارب التي مرّوا بها، بل هو التعبير الحيّ الممثل للبيئة الشعبية وما يكتنفها من ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية... الخ.

رغم اختلاف اللهجات التي يعبر بها حاملوا ومنتجوا الأدب الشعبي إلا أن له في شكليته وبناءه تشابها عالميا ومنه الشفهية ومجهولية المؤلف والتداول وغيره، نلاحظ أن الرؤى السابقة تطرح مجموعة من التوجهات ومنها نذكر :

- التوجه الأول ينظر إلى المفهوم من زاوية العامية التقليدية الشفهية، المجهول المؤلف والمتوارث عبر الأجيال.
- التوجه الثاني يربطه بعامية الأمة، أي باللغة العامية، اللهجة، والدارجة.
- التوجه الثالث يعتبره تشكيلة فنية جمالية، لذهنية وروح الأمة وقيمها الثقافية والفكرية والاجتماعية (المضمون والمحتوى الداخلي).

ولكن يبدوا أن هذه التوجهات يمكن جمعها في اتجاه موحد يرتبط أولا باللغة العامية، مسجل أو مدون، الشفهي متناقل جيلا بعد جيل، مجهول المؤلف، مرتبط بوجدان وواقع الشعب وبأحلامه وذهنيته، لكن تجدر الإشارة إلى نقطة أخرى وهي أن الأدب الشعبي العامي غير الأدب العامي وغير الأدب الفصيح، وهذا ما سنحاول التطرق له لاحقا كنقطة مكملة لتعريف مفهوم الأدب الشعبي.

3- أوجه الاختلاف بين الأدب (الشعبي، العامي، الفصيح)

إثراء للطرح السابق فإننا نرى أن الأدب بمفهومه الأكاديمي يعدّ أحد روافد الثقافة في أي مجتمع وبأي لغة يعبّر بها فصيحة كانت أو عامية، وهنا يمكن القول يوجد أدب فصيح رسمي قبالة أدب عامي وشعبي غير رسمي، وهذا الأخير يعتبر علما مستقلا بذاته يدرّس في أكبر الجامعات والمعاهد تحت اسم الأدب الشعبي، وما يهمنا هو بحث الاختلافات الجوهرية بين كل من الأدب الشعبي والعامي وكذلك الأدب الفصيح، فما هي الاختلافات الظاهرة بين هذه الروافد؟.

وهنا يمكن الإجابة بالقول إن الأدب الشعبي يعدّ من أبرز أوجه النشاط البشري، وملتصق بوجدان الناس وبحياتهم الاجتماعية، لصيق بعفوية قائليه وذاتيتهم، غير خاضع للسيطرة والضبط، لا ينقاد لضوابط وقواعد وقوانين محددة، يعبّر عن الجماعة البسيطة في حياتها وتفكيرها وتطلعاتها، قد ينبع من البيئة المحلية والإقليمية، واللغة العامية الدارجة المستعملة في هذا هي أداة الأدب الشعبي، المجهول المؤلف في كثير من الأحايين، كما يمكن أن يعتمد على الرواية وكذلك يعتمد التدوين في نقله.

وتطغى على معانيه البساطة والتلقائية، لأنها تشكل مزاج وواقع مختلف الطبقات الشعبية، وقد عرفناه بميزة الأدب الشعبي الجماعي، أي ملك الجماعة يشيع بين فئات مختلفة، واسع الانتشار، يحمله أبناء المجتمع باختلاف لهجاتهم، حاملا أو يحمل تراث أمة بأكملها، لا تراث فرد واحد، وهو بهذا لا يعبر عن فكرة الفرد، ولكن فكرة الجماعة، ويصبح بذلك ضميرها الحي المتحرك ووجدانها المعبر عن تجربتها الحياتية وموروثاتها وآمالها وآلامها (بدير حلمي 2002، ص ص 17-18)، فالطبقات الشعبية هي الفئات التي تمارس وتتداول الأدب الشعبي بصفة عامة.

ومن أشكاله السير والملاحم والقصص الشعبي وكذلك الشعر والأمثال والألغاز والنكت والبوقالة، هذه الأشكال ذات تراكيب وبناءات لغوية أقرب إلى اللغة الأم (الفصحى) إلا أنه لا يرقى إلى مستوى الأدب الرسمي الفصيح، وهذا لا نقاش فيه لأنه أدب يتلقاه الفرد بعد تعلمه في المدارس والزوايا وغيرها لسنوات طويلة لكنه غير معزول عن الأدب الشعبي، لأنه ينهل من مواضيعه ويتفاعل معها، فحتى الأدب الفصيح لا ينفصل أو ينقطع عن المجتمع.

ونلاحظ في ذلك أن الأدب الفصيح، أحيانا يأخذ من الأدب الشعبي مثل الحكايات التي تحوّل إلى إبداع فصيح بعد نقلها وتحويرها حسب أهواء المؤلف أو الكاتب، ونلاحظ ذلك مثلا في حكايات ألف ليلة وليلة فهي حكايات من إنتاج الشعب حوّلت إلى الأدب الفصيح فارتقت إلى العالمية، أيضا هناك حكايات حوّلت إلى الثقافة العالمة، ونظرة بسيطة إلى مجال الحكايات الجزائرية أو حتى العالمية المنشورة يكشف مدى تغلغل مواضيع الشعبي في الأدب الفصيح (لونجة بينت الغول، الأميرة والحطاب، بقرة اليتامى، ألف ليلة وليلة، سندريلا... الخ).

أما الأدب العامي قد يكون معروف المؤلف، قائله قد يكون مثقفا لكنه يكتب بالعامية بمقاييس محددة ومتميزة، كما يمكن أن يكون جماعيا –ليدخل في دائرة الأدب الشعبي- الخاص بجماعة معينة داخل مجتمع كبير أي له لهجة أو لغة معينة، تفهمها الجماعة التي تتداوله، كالطوارق مثلا أو الميزاب، أي أدب جهوي يخصّ جهة معينة دون غيرها يعني ذلك جماعة صغيرة في مجتمع كبير.

وكذلك البعض من الإنتاجات الشعرية عند شعراء يكتبون بالعامية وشعرهم يعرفه البعض من المتذوقين كشعر الشاعر محمد العيد آل خليفة الذي استعمل اللغة العامية في بعض أشعاره وقد اختلف الدارسون للأدب الشعبي حول إنتاج المثقفين الذين استخدموا اللغة العامية في التعبير، باعتبار أن هذا النوع يتميز عن الأدب الشعبي في نظرته وموقفه من القضايا الثقافية والفكرية (التلي بن الشيخ، ب ت، ص 85.)

فمثلا شعر الزجل كما تبين بعض الدراسات، ليس شعرا شعبيا لأنه إنتاج طبقة على حظ وافر من الثقافة، ولغته بين الفصيح والعامي ويذهب البعض إلى ضرورة فصل أدب المثقفين المعبر باللغة العامية عن الأدب الشعبي لأن من خصوصيات هذا الأخير البساطة في تصوير الحياة الاجتماعية، بينما الأدب الذي يكتبه بعض المثقفين باللغة العامية قريب من الأدب الرسمي الفصيح، رغم أنه يشترك معه في اللغة (العامية) ونلاحظ أن العامية هي إحدى المقومات الرئيسية للأدب الشعبي كما سنرى لاحقا.

وقد أجمعت المعاجم العالمية على أن الأدب الشعبي يشمل عادات الشعب وتراثه والأدب الشعبي هنا لا يعبر عن وجدان فردي واحد، بل هو لا يكترث بالوجدان الفردي، وهي خاصية أولى تفرقه عن الأدب العامي، لأن الأدب العامي –إن صح أن يكون أدبا- لا يختلف في شيء عن الأدب الرسمي (بدير حلمي، 2002 ، ص 17)

رغم أن العامية لغة لا ضوابط ولا حدود لها، مثل اللغة الرسمية الفصيحة، فنحن إذا رجعنا للغة الفصيحة أو الأدب الرسمي نجده على النقيض منه إلى حدّ ما لأنه يحمل مياسيم اللغة الفصيحة الواحدة بقواعدها الصارمة، ويخضع لضوابط نقدية تحد في أحيان كثيرة من التدفقات الوجدانية وتكبحها إلى درجة ملحوظة (النوايسة نايف ، 2002، ص 784.).

إنّ الأدب الفصيح هو أدب نحوي، والأدب العام غير الأدب الخاص أو غير الأدب العامي، ذلك الأدب الذي يحمل ملامح أدب اللهجات، أو أدب الأقاليم الشفوي، بمعنى أدب الحياة اليومية لجميع متمثليه في البيئة المحدودة ومتطلباتها وظروفها، وهو سريع التطور والتغير والتجاوب مع كل مقتضيات العصر... ولذلك فنحن نسمي الأدب العامي أدب اللهجات... (عيلان محمد، 1999، ص 168).

وهذا النوع من الأدب يعبر عن البيئة التي أنتج فيها، يحمل خصائصها وميزاتها، فهو أداة التواصل اليومي، خاضع للاستعمال اليومي، على اختلاف اللهجات في وطن واحد، فمثلا في الجزائر نحن نطرب لأغاني الطوارق في الهوقار والطاسيلي وموسيقى التندي، كما نطرب لأغاني وادي قير في العبادلة ببشار، وكذا أغاني تنيباوين وتاكسلانت ومروانة في الأوراس الغربي، وكذا خنشلة وأريس وطبوع الطرق والركروكي في الأوراس الشرقي، ونطرب للأغاني القبائلية في جرجرة وآقبو، كذلك الأغاني الصحراوية في المسيلة والجلفة والبيض وتوات وغيرها مما يشيع في وطننا... (عيلان محمد، ص 169)، كلها ترتبط بالبيئة التي أنتجت فيها، لصيقة باحتياجات الإنسان الذي يتمثلها ويعيد إنتاجها.

ومن هنا يتبين لنا أن اللهجات تتعدد لتصدر عن كل لهجة أدبا خاصا بها دون غيرها، فما نجده أحيانا في بيئة ما كالطوارق مثلا (بلباسهم وموسيقاهم ورقصهم وأقوالهم وغيره) يخصهم دون غيرهم، بل ويميّزهم عن الجماعات الأخرى، وهنا يلعب الأدب العامي دورا في كشفها والتخصص فيها، فالأدب العامي أدب اللهجات والأقاليم سريع التغيير والتطور، وهو لا يرقى إلى مستوى الأدب الشعبي لمحدوديته وحصره في جهات معينة.

بينما الأدب الشعبي أدب واسع الانتشار، تتبناه الجهات والأقاليم دون حدود ولا قيود، لاحظ التشابه من خلال فنون وأشكال الأدب الشعبي كالأمثال الشعبية المتداولة إلى يومنا في الجزائر والمنطقة المغاربية وحتى الأقاليم العربية مثل: كالمنشار طالع ياكل نازل ياكل، البنات شرهم حتى للممات، يا قاتل الروح وين تروح ...الخ.

إن النقاط التي تطرقنا إليها سابقا توصلنا إلى ضرورة التعمق أكثر في الميزات الرئيسية التي تميز الأدب الشعبي عن غيره من الآداب ، حيث تبين أن الأدب الشعبي كأدب يخص المجتمع، يترجم واقعه وحياته ببساطتها وتلقائيتها، أدب متناقل شفويا جيل بعد جيل، تتناقله الجماعة، أي هو أدب جماعي، أداته اللغة العامية إن صح التعبير، فأي أدب لكي يدخل تحت مصطلح الأدب الشعبي يجب -أولا- أن يحقق وجوده لأكثر من جيل، ولأكثر من مكان، ويجب ثانيا أن يعكس موقفا جمعيا لا موقفا فرديا، وينبغي -ثالثا- أن يكون تداوله طليقا، بمعنى أن كل متداول له يعيد تكوينه عند إعادة تقديمه بحيث يضيف إليه هموم عصره، وطموحات أبناء هذا العصر، وهذا لا يتحقق للنص الشعبي إلا إذا كان قابلا لاحتواء هذا التراكم الفلكلوري (خورشيد فاروق، 2002، ص 22)، أي يدخل في دائرة الأدب الشعبي سواء استعملت فيه اللغة العامية أو الفصحى (ألف ليلة وليلة).

وبالمقابل الأدب العامي أدب يخص حالات نفسية، وجدانية تخص الفرد الواحد، يندرج تحت أدب الذات المفردة التي يعبّر بها الأديب أو الشاعر عن نفسه وعن موقفه الذاتي من مجتمعه وظروفه الاجتماعية والهموم أو الاهتمامات التي يقف عندها الأدب العامي غير التي يقف عندها الأدب الشعبي كما رأينا.

إلا أنه يشترك مع الأدب الشعبي في العامية والبساطة والعفوية، بينما الأدب الفصيح هو أدب مقيد، يخضع لضوابط نقدية تختلف اختلافا كبيرا عن الأدب الشعبي والعامي، وبالتالي على الباحث والدارس للأدب الشعبي، التقيد باللغة المستعملة في الأدب الشعبي، فلا يضطر إلى نقل النص المنطوق إلى اللغة الفصحى فيخل بتركيبه وأحيانا بمعنى النص مهما كان شكله، كما أن عليه تفهم نفسية وذهنية منتجي أشكال الأدب الشعبي بما أنه ترجمان مخيلتهم حول مختلف المواضيع، ويسقط من دراسة ذلك النوع من الأدب المسمى بالعامي الذي لا تتوفر فيه شروط ومقومات الأدب الشعبي.

وفي مقارنة الأدب الفصيح أو الرسمي بالأدب الشعبي مغالطة يجب التنبيه إليها إلا في ذلك الامتزاج الذي يحدث بينهما من حيث نقل بعض أنواعه وأشكاله وعناصره إلى الفصيح نقلا محكما، ومثال ذلك ما يتم من دخول وتراسل بعض أشكال السرد القصصي والمقاطع الشعرية بالرغم من تباعد المجالات.

ونافلة القول إن المقارنة بين الأدب الشعبي والأدب الفصيح أو الرسمي هي مقارنة غير علمية ومغلوطة ذلك للخصوصية البنائية والمورفولوجية لكليهما، حيث لكل نوع منهما آلياته النقدية الخاصة والمخالفة للنوع الثاني، وإذا كانت أشكال الأدب الرسمي تمثلها الرواية والمسرح والشعر والقصة ...الخ، فإن أشكال الأدب الشعبي قد تخالفه تمامًا بالأمثال الشعبية ذات البنية المتميزة والمعاني المستنبطة من الحياة بتناقضاتها والحكاية الشعبية بما يختلجها والشعر الشعبي...الخ فلا يحق لنا المقارنة بينهما لهذا السبب الوجيه.

إن هذه القراءة السوسيولوجية لإبراز أهمية الأدب الشعبي ستعيدنا إلى تقديره ثقافيا واجتماعيا وتاريخيا في محاولة جادة لاستعادة قيمته الفنية والحضارية واهتمام ومواجهة مساءلة للتراث الثقافي الجزائري تحديدا بكل صراحة وصرامة علمية نقدية بناءة.

4- المقومات الرئيسية للأدب الشعبي

للأدب الشعبي مقومات درج المهتمون بهذا الميدان تداولها وعليه سنحاول تناول أهم المقومات التي يرتكز عليها الأدب الشعبي ومنها على الترتيب:

- **اللغة العامية:**

مما لا شك فيه أن اللغة العامية تعد من أهم مقومات الأدب الشعبي كما رأينا سابقا، لأنها لغة الشعب، تنم عن واقعهم ومستوى تفكيرهم، وتتم قولبتها حسب أو وفق الحاجة إلى استعمالها.

إن اللغة العامية هي أداة الأدب الشعبي، لأنه أدب الحياة أولا وهو تعبير عن إنسان يعيش في مجتمع ويؤثر فيه ويتأثر به، أداته لغة ذلك المجتمع، التي لا يستطيع أن يحيد عنها أو يتخذ لها بديلا، وغايته الصدق وإبراز الحقيقة (السويدي محمد، 1984، ص 121).

إن العامية هي لغة منطوقة تتخلص من قواعد الإعراب والضبط، وتميل إلى دمج الكلمات بالطريقة التي تتوافق مع إمكانية اللسان وظروفه الاجتماعية وطبيعة الموضوع والعمل وغير ذلك ... (إبراهيم أحمد شعبان، 1972، ص ص 6-7)، فالعامية كلغة خاصة بالعامة، تستعمل للتواصل في الحياة اليومية هي لغة البيت والشارع والمجتمع ككل، لغة الأمي والمتعلم، الغني والفقير... تعبّر مختلف الطبقات عن نفسها باستعمال العامية، لأنها لغة كل فئات المجتمع، وللعامية ميزة معينة وهي المرونة والسهولة والطلاقة، فهي اللغة الأم التي يتعلمها الفرد في مراحل حياته الأولى، كما أنها لغة التراث والأدب الزاخر المتداول شفهيا عن طريق الرواية والتواتر.

- الرواية الشفوية:

يعتبر عامل الرواية والتناقل الشفوي أحد أهم مقومات الأدب الشعبي فقد شاعت تسميات عديدة لهذا الميدان... الأدب الشفوي أو الفن اللفظي أو الأدب التعبيري...(الجوهري محمد وآخرون، 1992، ص 42).

فصفة الشفوية قد ساهمت في استمرار وتداول الأدب الشعبي بين أفراد المجتمع الذين يتناقلونه عن طريق الرواية والإخبار جيلا بعد جيل.

هذا الأدب الذي شاع بين فئات غير ملمة بالكتابة هو في المقام الأول أدب شفوي مضمونا وبنية، وتجدر الإشارة إلى أن عملية تدوين النصوص الشفوية لا يخل بنظامها خاصة إذا دون النص كما هو (الدارجة)، وأكثر من ذلك عملية التدوين والحفظ تساهم في إستمراريته وبقاءه –مثل نصوص ألف ليلة وليلة- ساهمت عملية تدوينها في حفظها حية كأدب شعبي عالمي، وأيضا الكثير من أشكال الأدب الشعبي كالقصص والأشعار والأمثال التي تستخدم الكلمة المنطوقة لتنتقل مشافهة من فرد لآخر ومن جماعة لأخرى يسهم تدوينها في بقاءها واستمرارها.

- مجهولية المؤلف:

ليس الأدب الشعبي كالأدب الرسمي الفصيح المعروف المؤلف، وتعبير مجهولية المؤلف، تعتبر إحدى مقومات الأدب الشعبي رغم أن لكلاهما مؤلف، إلا أن الأدب الشعبي فقد هذه السمة وهذه إحدى نتائج عملية التداول وتبني المجموعة للأدب الشعبي... وقد يحدث كثيرا أن تنصهر شخصية الفرد (المؤلف) في الشخصية الجماعية وفي المزاج الشعبي، وبعد فترة نجهل المؤلف الأصلي للنص الشعبي نتيجة لهذه العملية...(حريز حامد، 2002، ص 32) كبعض الأشعار الشعبية الجزائرية التراثية التي حولت لمجال الغناء ونحن تقريبا نجهل مؤلفها الأول.

ويتبين من خلال هذه الميزة أن الفردية والذاتية تمزج مع العام والجماعي، فإنتاجه فردي ذاب في الجماعة التي تتناقله وتتداوله ومن الصعب إن لم يكن من الخطأ، إرجاع الأثر الشعبي إلى مؤلف واحد، إذ أن أشخاصا كثيرين يشتركون في تأليف الأثر الشعبي وبلورته (حرب طلال، 1999، ص 65)، فهذا يعني أن المؤلف الأول قد سقط اسمه مع مرور الزمن.

لكن يظهر أن هذه السمة لا تنطبق على مختلف أشكال التعبير أو الأدب الشعبي، لأن بعض أشكاله كالشعر مثلا (الشعر الشعبي) نجد له دواوين أشعار معروفة المؤلف، وهذا يعدّ استثناءا على بعض الأشكال.

- **جماعية الأدب الشعبي:**

يعني ذلك أن جزءا من الأدب الشعبي خبيئ في صدور وذهنية الجماعة كالقصة التي يتناقلها أفراد المجتمع ويتداولونها فيما بينهم من الكبار إلى الصغار، ومن مكان إلى آخر، ومن زمان إلى آخر، فتتبناها الجماعة وتتأصل فيهم بقيمها، وأفكارها فتصبح جزءا من الأدب الشعبي، وهذه السمة (جماعية الأدب الشعبي) مقوم رئيسي لهذا النوع، فمن المعروف أن التراث الروحي لأية أمة ينطوي على تنظيم جماعي، ويعتبر في الوقت نفسه بمثابة الوعاء الذي تنصهر فيه المثل الاجتماعية والمقومات الخلقية التي تضمن للمجتمع كيانه الروحي، فهو تراث يحوي جميع القواعد والقوانين والسنن التي تنظم علاقات الأفراد بعضهم ببعض وعلاقتهم بمجتمعهم (السويدي محمد، 1984، ص 43).

إن الأدب الشعبي جماعي واجتماعي شكلا ومضمونا، إن جماعية هذا الإبداع تتمثل في صورته الشاملة لكل أحاسيس وآلام وآمال أفراد الشعب، فكل واحد يحسّ نفسه منتجا في هذا الإبداع، وهذا راجع إلى النظرة الشمولية التي يمتاز بها المبدع الشعبي الأول... فهو ملتصق التصاقا عضويا بالجماعة التي يتكلم لغتها ويرسم خطابها (سعيدي محمد، 1998، ص 20).

كما أن تبني الجماعة للأدب الشعبي يعني مشاركة كل فرد في الإنتاج وفي الزيادة والتحوير بحيث لا يبقى الإبداع على حالته الأولى، فالمبدع الأول للنص الأدبي لا يحتفظ بإبداعه لذاته، بل تتلقاه الجماعة وتتداوله بالزيادة والنقصان حسب الحاجة الاجتماعية، فهو بالتالي يتميز عن ذلك الإنتاج الفردي، بأنه إنتاج جماعي، إنتاج شعب ككل (توفيق زياد، ب ت، ص 23)، الجماعة تتبناه وتترك أثرها فيه.

- **محتوى وبنية الأدب الشعبي:**

إذا تناولنا أشكال الأدب الشعبي يلفت انتباهنا البنية والأسلوب، كالقصة مثلا التي تبتدئ بصيغة لغوية ثابتة ومعروفة، يبدأ بها القاصّ أو الراوي بأسلوب متميز، يستعمل فيه التكرار والتفخيم لشدّ الانتباه في بداية القصة ونهايتها ونجد ذلك أيضا في الأمثال والألغاز والملاحم والسير الشعبية، فالبنية والأسلوب يعدّان من المقومات الرئيسية للأدب الشعبي، محتوى أشكاله قد يتغيّر إلا أن بنيته العامة تبقى ثابتة ليفرق بين الكلام العادي والأدب، فبنية وأسلوب القصة يضيفان عليها نسيجا مميزا يفرق بينها وبين الروايات الشفهية التي تندرج تحت باب الأدب القولي (حريز حامد، 2002، ص 32).

لقد جاءت ألفاظ الأدب الشعبي منحوتة من بيئته الخاصة ولهذا نجده غني بالرموز المعبرة عن العقائد والأحداث وعن تجربة الإنسان الشعبي –في بعده المكاني، وفي بعده الأساسي الزمني- سواء في عيشه اليومي، أو مع وجوده من جهة، ومع الطبيعة والكون من جهة ثانية، تجربته في حسه وفي وعيه (العربي رابح، 1989، ص 17.) .

فالأدب الشعبي يعتبر وعاء ثقافي فني ينبع من أصالة الشعب ومن بيئته وتاريخه الطويل العريق الحافظ لذاكرة الأقدمين والأولين. وبه نتعرف على ذهنياتهم ومستوى تفكيرهم واعتقادهم، إنه يصور حياتهم بأفراحها وأقراحها من خلال بيئته ومحتواه المتضمن في الذاكرة الشعبية المتواترة شفهيا وحتى المدون.

إن المحتوى الثقافي للأدب الشعبي ينبع من ذاتية وأصالة الشعب رغم التغيرات التي قد تطرأ على محتواه عبر الزمان والمكان، الا أنه يحافظ على مبناه وخاضع لمزاج ونسج مخيلة المبدع الشعبي ونجد في

الأدب الشعبي مثلا شخصيات أسطورية أو خرافية أو فكاهية تلعب أدوارا معينة وترتبط بأحداث معينة في سياق اجتماعي متشابه، نجد ذلك في شتى بقاع العالم (حريز حامد، 2002 ، ص 33)، ومثال ذلك قصص ألف ليلة وليلة، جحا... الخ كلها تصلح لأن تكون ذات محتوى عالمي، ولكننا إذا حددنا ذاتيته فهو في الحقيقة لصيق ببيئته وتاريخه حسب محتواه ومبناه العام ،وهكذا نجد أن مختلف المقومات التي أشرنا إليها تميّز الأدب الشعبي وتسهم في مدّنا برؤية واضحة عن الأدب الشعبي في بعديه المحلي الإقليمي أو العالمي.

5- أشكال التعبير الشعبي

يجمع الأدب الشعبي في ثناياه مجموعة من الأشكال الأدبية، وأشكال التعبير هذه هي أصدق التعابير عمقا وصدقا، وارتباطا بنفسية الشعب وبالوطن وذلك لطبيعة هندستها الفنية واللغوية وتعدد أشكالها وتنوع مضامينها (سعيدي محمد،2002، ص 399)، إن هذه الأشكال قادرة على التعبير عن الواقع الاجتماعي، كل شكل حسب بناءه وهيكله وأيضا حسب مرماه ووظيفته التي أوجدها المجتمع فالأسطورة الكونية والمثل الشعبي والنكتة كلها أنواع أدبية، ولكنها ولا شك أشكال يختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافا جوهريا وإن كان صفة الشعبية تجمع بينها، ويرجع سبب الاختلاف إلى أن كل منها ينبع من مجال محدد من مجالات الاهتمام الروحي الشعبي، وهذا المجال هو الذي يحدد شكل كل نوع ووسيلة التعبير فيها (إبراهيم نبيلة، ب ت، ص 4).

لتجمع في النهاية اهتمام وتجارب ومشاكل وآمال وآلام الشعب، وأشكال الأدب الشعبي متعددة ومنها القصص والأساطير والخرافات والحكايات الشعبية، الشعر والأغاني والمواويل الشعبية وأهازيج الطقوس الدينية والألغاز والأساطير والنكت والأمثال والتعابير والأقوال السائرة والنداءات والبكائيات والمدائح الدينية والابتهالات الدينية والرقى والمجرودة والألغاز والنوادر والأعمال الدرامية (خيال الظل، الأراجيز، التمثيليات، مشاهدة الحواة ونظرائها) (الجوهري محمد، 1993، ص ص 35-36.).

ونضيف إلى ذلك دراسة الأدب المنحصرة على التقسيمات التالية: القصص والأساطير، الحلقات والأغاني، الحكم والأمثال، الألغاز والتعابير...وكل ما يتناقله الناس عن طريق الرواية الشفوية، وكل ما يلقن خارج الإطار الرسمي أو المدرسي (P. Saintyves, 1936, p 2).

المهم أن هذه التقسيمات في مجملها لم تحدد أهم عناصر الأدب الشعبي، فهناك من ذكر أشكالا، وآخر قد تغافل عنها، ولكننا يمكن أن نؤكد أن بعض الأشكال الأدبية نالت حظًا كبيرا من الاهتمام والدراسة كالقصص والشعر والأمثال الشعبية، وهذا ما لاحظناه بعد قيامنا بجرد ميداني لدراسات وأبحاث حول أشكال الأدب الشعبي وخاصة منها الجزائرية.

6- الوظيفة السوسيوثقافية للأدب الشعبي

نشير في صدر هذا الحديث إلى أن الأدب الشعبي بأشكاله المتنوعة عدة وظائف وأدوار يؤديها في المجتمع، بحيث لا تستغني عنه الجماعة وذلك أن الأدب الشعبي ليس مجرد تعبير يحتفظ به الشعب لنفسه بل هو صرخة عالية تدعونا إلى أن نستمع إليها ... وأن نتفهمها وأن نتعاطف معها فإذا فعلنا... أمكننا أن ندّعي أننا نضع بقدراتنا العملية شيئا إيجابيا يسهم في الكشف عن نفسية الشعب وما يختلج بها من آلام وآمال (يعقوبي لوسي ، 2001، ص 93).

إن الدور الاجتماعي الثقافي للأدب الشعبي يتمثل أو يتبلور في كونه أداة ثقافية حيوية وفاعلة تخدم الجماعة الإنسانية فهو كـنتاج ثقافي واجتماعي يرتبط ارتباطا عضويا بوجود الجماعة الإنسانية نفسها... (قاسم عبدو قاسم، 2001، ص 32)، وبما أنه نتاج ثقافي واجتماعي فإن وجوده وتداوله ليس نوعا من النتاج الاجتماعي... وإنما هو نتاج له دور اجتماعي وثقافي مهم في حياة أي جماعة إنسانية (قاسم عبدو قاسم، 2001، ص 33) مهما تعددت الأقاليم والمناطق واللغات واللهجات في هذا النتاج.

إن الأدب الشعبي بـ قصصه وأساطيره وأمثاله وأغانيه... وغيره (Certeux. A, E. Henry carnoy, 1984, p 13) أو لنقل بـ : مجموع القصص والأساطير... والأغاني، التي نستطيع إدراجها في باب الأدب الشفوي أو القولي ... (Bouvrie jean claude, 1980, p 19.)، مع وجود أشكال أخرى " للتعبير الشعبي مثل قصص الأولياء وحكايات الحيوان والنوادر والمقاطع الشعرية الغنائية ..."(بورايو عبد الحميد ، 1998، ص67)، كلها يؤدي وظائف اجتماعية وثقافية ونفسية لأنها أصدق التعابير عمقا وصدقا، وارتباطا بنفسية الشعب وبالوطن وذلك لطبيعة هندستها الفنية واللغوية وتعدد أشكالها وتنوع مضامينها... (سعيدي محمد، ص 329.)، ويمكن القول إن هذه المضامين أحيانا تجمع ذلك الكل الثقافي الشعبي الغير موظف أو موجود في الدين أو التاريخ، هو وليد اللحظة التاريخية التي أنتج أثناءها (Sébillot paul, 1913, p 3)، وهنا نشير للخرافات والأساطير والحكايات المبنية على الخيال والغيبيات فما تطرحه قد ينافي ما نجده في الدين وهنا نكتشف المخيلة الإبداعية الشعبية التي تنحوا إلى هذه الأشكال للتنفيس أو التعويض النفسي عن حاجة ما.

فأشكال الأدب الشعبي أو الأدب الشفهي هي قبل كل شيء التعبير العام للمجموعة الاجتماعية، وللمجتمع تعكس رؤى أو نظرة وأفكار الجماعة كما أنها تعكس وتؤكد في نفس الوقت الانطباعات والأحاسيس ومختلف القيم السائدة... إن وظائف الأدب الشعبي وظائف متعددة ومعروفة (Chadli Elmostapha, 1997, p 08) ومن هذه الوظائف نذكر:

- **الوظيفة النفسية الوجدانية:** تظهر أول الوظائف كما رأينا في الجانب النفسي بحيث يتبين مثلا أن الأسطورة بشخصياتها وبعض الخوارق والملاحم والحكايات الخرافية واللغزية، وحكايات الجان والغيلان والسير والأشعار والأمثال الشعبية تؤدي دورا يعبّر عن آلام وآمال مكبوتة أو تعويض عن واقع، كما أنها وسائل ترفيهية (فيما مضى) تنسي الهموم اليومية وحياة الحرمان والذلّ والرتابة.

وقد تدخل فيها الغيبيات والإيديولوجيات والخرافات والاستثناءات العقلية وكذا وجدان الشعب وتلك اللحظات التاريخية السائدة بمفاهيمها وإيديولوجياتها كما أنه ينقل العواطف الإنسانية والطموحات والاحتياجات الإنسانية، وبالتالي فالوظيفة أو الدور النفسي الذي يؤديه الأدب الشعبي يتمظهر في تعبيره عن خلجات الشعب النفسية واهتماماته الروحية ومداركه الوجدانية والعقلية (عقلية الشعب).

إنه يكشف عن كل ما يمر في الأذهان من الخواطر والمشاعر والأخيلة والأحلام، ومن ثمة يحقق المتعة المرتبطة بمصيره، وقضاياه الاجتماعية الكبرى التي يؤثر فيها ويغنيها بعناصره الغنية (العربي رابح، 1989ص 8)، فالأدب الشعبي من هذا المنظور أدب تنفيسي غايته تفريغ وإسقاط المكبوت والذهاب بالأحقان، والتعرف على عقلية الجماعة معرفة داخلية والتغلغل في

خباياها النفسية، كما أنه يعد وسيلة هامة تسهم في صقل الشخصية وتكوينها من الميلاد إلى الأفول، فحتى في مجال الأدب الشعبي نجد " مأثورات تصاحب دورة الحياة من ميلاد وطفولة ومراهقة وزواج ووفاة وهناك مأثورات تصاحب حياة الإنسان الفرد في عمله ولهوه وفي حياته الإعتقادية، وفي موقفه من غوامض الطبيعة والكون وأسرارها، وهناك مأثورات تتصل بعلاقة الإنسان الفرد كعضو في جماعة محدودة بمكانها وزمانها وتقاليدها وأساليب عيشها (رشدي صالح أحمد، 1971، ص 24).

وباستعماله أو تداول أشكاله المختلفة تنتقل تلك القضايا التي يحويها فتعيد إنتاج وقائع اجتماعية وحالات نفسية جديدة باعتباره عنصرا من عناصر الإيديولوجية (بورايو عبد الحميد،1998، ص 23) التي يتشرّبها الأفراد فتؤثر في نفسيتهم وهنا يتبين أن الأدب الشعبي ليس أدبا ساذجا تقصر اهتماماته وانشغالاته على الأبعاد الجمالية، بل هو أدب هادف فاعل مغروس في تربة المجتمع خاضع لقيمة ومثله ومسلماته ومفاهيمه، تقاليده وعاداته وكذا آماله وآلامه وأحلامه ينقلها بقوة وفعالية من جيل إلى جيل فتبقى قوية وفاعلة إلى درجة أن الإنسان يعجز أحيانا عن تغيير أعمال وعادات يقوم الناس بها من غير أن يعلموا الأسباب التاريخية التي دفعت إليها (حرب طلال، 1999، ص 80)، وهذا لأنها خضعت لنفسية الشعب وتأصلت في ذهنيته.

- **الوظيفة الاجتماعية للأدب الشعبي:** الوظيفة الاجتماعية تتمثل في كونه الضمير الجمعي والتاريخي للأمة، يعكس كل ما له صلة بالمجتمع الصغير والكبير منه، يعبّر عن تجربة الجماعة وموروثاتها وتطلعاتها... الخ، ويعبّر عن التجربة الجماعية في مدلولها الاعتقادي والاجتماعي التي لا غنى عنها في حياة أصحابها، وقد تعمل هذه الوظيفة على ترسيخ معتقد أو قيمة أخلاقية، أو هي تعليم من يتلقاها بعض المعارف الشعبية أو هي تأكيد قيمة أو اعتقاد، أو المعاونة على ضبط حركة الجسم أو الترويح في إطار الحياة الشعبية (رشدي صالح أحمد، 1971، ص 23).

يعني أنه يتماشى وفق ما تمليه قيم المجتمع على الأفراد، كي يتوافقوا ويتلاءموا مع هذه القيم والمعايير والمعتقدات، فإذا خرجوا عنها أو رفضوها اعتبروا أفراد مخالفين أو شاذين عن الجماعة، وكثيرا ما يختزن الأدب الشعبي هذه المظاهر ويعمل على المحافظة عليها خاصة فيما يتردد منه من أشكال أدبية (كالأمثال، الحكم...) وهنا يتضح أن للأدب الشعبي أهداف اجتماعية وهي عديدة تتلخص في نقل المعارف المختلفة والقضايا المتباينة والمشكلات المتنوعة إلى أفراد المجتمع والتعبير عن شتى التجارب التي ينبغي أن يقفوا عليها، ليكونوا على بيّنة من أمر أنفسهم ومجتمعاتهم (السويدي محمد، 1984، ص 123).

ولأشكال الأدب من القصة وشعر وأمثال وألغاز ونكت وملاحم... الخ، القدرة الفائقة على تصوير العلاقات الاجتماعية والواقع الاجتماعي شكلا ومضمونا تعبيرا عن واقعه وتسجيلا للأحداث الهامة من تاريخه وتصوير الظواهر وملامح المجتمع وتقاليده وآراءه الأصلية (قريش روزالين ليلي، 1980، ص 3)، النابعة من الوعي واللاشعور الجمعي الذي تتناقله الجماعة من جيل لآخر، وهنا قد يمارس وزنا ثقيلا على المجتمع إلى جانب الأجزاء الأخرى من المركبات الثقافية كالدين والعرف الاجتماعي إن لم يكن هو ذاته يحمل جزءا من هذه المركبات الثقافية.

كما نلمس من خلال أشكاله الأدبية نوعا من الرفض والتمرد على صور الظلم والاستبداد ومحاولة البحث عن سبل لتحقيق العدالة الاجتماعية ،فكثيرا ما عرض الأدب الشعبي صورا من أشكال الظلم والمشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تعرض لها الإنسان ،كتداول النكت

التي تعبر عن الوضع الاجتماعي المحتقن أو التعبير عن الظلم بشكل تنكيتي مضحك ، فالشعوب المضطهدة تبحث من خلال أدبها عن الخلاص في شخصية (البطل في القصة مثلا) المنقذ والملهم إنه يصب اهتمامه على شخصية تاريخية تمتاز بمواصفات يحبها الناس ويقدسونها لأنها تعكس المثال الذي يتطلعون إليه في مرحلة ما من تاريخهم فينسجون حول هذه الشخصية التاريخية أحداثا تتسم بطابع البطولة (حرب طلال،1999، ص 76)، وفي نقله لصور الظلم يصور تلك العلاقة التي تجمع الحاكم الظالم (الغول) بالرعية ورفض الخضوع لأشكال الظلم، مقاوما في معناه الخفي.

- **الدور الثقافي للأدب الشعبي:** يظهر دوره الثقافي كحامل ومدعم ومنتج للأفكار والرؤى والقيم المشكلة للكلّ الثقافي من دين وعرف وتقاليد وتاريخ ومعتقدات المجتمع بتناقضاتها، ويتلخص هذا الدور في كونه حافظ لتراث الأمة الثقافي والفكري الذي ينتقل بفكر الأمة وعاداتها وتقاليدها وحكاياتها وقصصها وأنسابها ومعتقداتها من جيل إلى جيل (بدير حلمي، 2002 ، ص 26)، فهو كالمرآة أو الدليل الذي نكتشف من خلاله ثقافة المجتمع بشقيها المادي والمعنوي.

ودليل نكتشف من خلاله ذوق وميول وطرق اللهو في المجتمع، يكشف عن مختلف المواضيع الذي تدور في خلد المجتمع كموضوع الجمال والحبّ والزينة واللباس وغيره إنه بحقّ يعد مرآة ودليل وكاشف، ولا شكّ في أن له دورا هاما في استمرار وجود المجتمعات، وفي المحافظة على الرّوح القومية والوطنية وذلك بتمجيد الأبطال والبطولات، وترسيخ التقاليد والعادات، وتاريخ الحوادث الهامة، تفرز الجماعة من خلال الأدب الشعبي رؤاها وأذواقها وفنونها، فهو يرتبط بوجودها وبقاءها.

إن الدور الثقافي للأدب الشعبي لا يزال مطلوبا باعتباره أداة ثقافية حيوية فاعلة في خدمة الجماعة الإنسانية، فالجماعة التي أضاعت أو فرّطت في موروثاتها الثقافية، هي جماعة تابعة، فانية، ضائعة، ثقافيا، تابعة لمجموعات أخرى وسط هذا الزخم من العناصر الثقافية الدخيلة بالقوة الإعلامية على المجتمعات ومنها المجتمعات العربية المستهدفة في عقيدتها وهويتها وطمس الكثير من معالم تراثها المدون والشفهي الزاخر بشهادة الدارسين لهذه الثقافة العريقة.

وعبر تناولنا للوظيفة التي يقوم بها الأدب الشعبي حري بنا أن نجيب على السؤال الذي طرحناه والمتعلق باستمرارية ومدى حضور الأدب الشعبي في حياتنا المعاصرة، حيث يمكننا القول إن حضوره الأساسي يشمل قدرته على تحليل بعض عمليات التغير الثقافي، عواملها، وسرعتها، واتجاهاتها، ونتائجها...مهمة بنفس الدرجة للقائم على رسم سياسة التخطيط بمستوياتها المختلفة (محمد الجوهري، 2006، ص 12).

فعند إلقاء نظرة على التاريخ الثقافي لمجتمع ما ولفهمه بعمق يجب الانطلاق من تراثه الشعبي، وتحديدا من أدبه الشعبي، حيث عبره نستطيع فهم عمليات التغير في بعض عناصر الثقافة ننتفع بها بالدراسة والتحليل والبحث والمقارنة، أما الجانب الذي يهم المخطط السياسي من تراث المجتمع وأدبه الشعبي فهو من أجل فهم المجتمع المحلي عبر تراثه لتنميته، ومحاولة تطبيق برامج التنمية لهذه المجتمعات، وفق ما يهمها وما يخدمها.

إن الدراسات الانثروبولوجية الاستعمارية في هذا الباب بالتحديد استطاعت استغلال هذا الجزء من التراث أو الفلكلور خدمة لأغراضها الاستعمارية، موظفة إياه بشكل نراه مجحفا وسلبيا ساهم في تطبيق مخططات تفتيتية وانقسامية زارعة عبرها سمومها ببذور الشك والفرقة بين أبناء

الوطن والأقاليم الواحدة، كما هو الحال في الجزائر كدولة خضعت للإستدمار الفرنسي ولا زالت تتجرع مرارة هذه المخططات إلى يومنا هذا في أسئلة الهوية الوطنية الضبابية.

وفي مجال الحفاظ على التراث واستمراريته فإنّ لوسائل الإعلام والتواصل والوسائط الاتصالية ومواقع التواصل الاجتماعي كالفايسبوك وكذا الفنون باختلافها دور حساس ومهم في عملية النقل وإعادة الإنتاج والحفاظ عليه من الاندثار، إن هذه الوسائل بمقدورها تجديد الكثير من صور الحياة في الماضي (سواء ماضي المجتمع الذي تخاطبه أو الماضي الإنساني عند الآخرين)، وقد تخلع عليها بهاءا وجلالا، أو تحط من قدرها وتسيء سمعتها، وهذا كله تدخل مباشر يحي بعضا من التراث أو يميته (محمد الجوهري، 2006، ص 119).

ويظهر ذلك خاصة من خلال عرض بعض عناصر التراث الشعبي أو الأدب الشعبي تحديدا في الأفلام والأشرطة الوثائقية، والتسجيلات الصوتية والتلفزيون والإذاعة والكليبان والأغاني والأعمال الدرامية، وفي فن المسرح والرسم والرواية، وعبر مواقع التواصل الاجتماعي بإنشاء صفحات على الفايسبوك، تروج له وتجمعه وتتداوله على نطاق واسع وهذا ما لاحظناه عبر صفحات فيسبوك تتداول أمثالا شعبية وتعابير سائرة وحكم ومواعظ، وعبر اليوتيوب بالتسجيل والنقل والحفظ.

وتساعد هذه العملية بتعريف أبناء المجتمع بثقافتهم التي يعد الأدب الشعبي جزء مهم منها، ويطال التعريف حتى الأجانب وفي ذلك حفاظ على الهوية وكيان المجتمع في ظل التغيرات المتسارعة وكم التدفق الثقافي الوافد مع العولمة، إن هذه الوسائل بمقدورها كذلك امتصاص وابتلاع جميع أنواع الموضوعات الشعبية لتعيد إفرازها من جديد، وتنشرها على جمهورها العريض في عملية تغذية استرجاعية ثقافية مستمرة (محمد الجوهري، 2006، ص 120).

ونضيف إليها أعمال النشر والتدوين والتسجيل والنشر والتوزيع التي مست أشكال الأدب الشعبي الشفوي الذي انتقل عبر هذه الخطوات إلى مجال المدون خاصة منها المتواجد في السوق كالحكايات الشعبية والشعر الشعبي والنوادر المضحكة، والقصص المسلية ...ونضيف"إليها حضور بعض أشكاله في الكتاب المدرسي كالحكايات والمأثورات والنوادر وغيرها وكلها صار ضرورة في حياتنا المعاصرة من أجل إعادة إنتاج هذا التراث الهام.

الخاتمة:

لقد كان الأدب الشعبي ولا زال وسيلة هامة يصور الحياة الاجتماعية للأفراد بكل أبعادها وتناقضاتها، فمنه ما كان سمر القوم ولهوهم في الشتاء الطويل (الحكايات والقصص...) ومنه ما كان يستعمل لتحقيق الأماني والآمال (البوقالة والشعر...) ومنه ما استعمل للرّد على الحاكم بإيحاءات ورمزية مطلقة (كالألغاز والحكم والنكت...)، فكل شكل يرمي إلى غاية وإلى هدف ومطالب حسب بناءه ومحتواه أو مضمونه الداخلي والخارجي ، هذا الإنتاج بصفة عامة يهدف بحسب الإنتاج الأدبي الشعبي إلى تفسير جانب من الحياة المتنامية الأطراف، المتعددة الأشكال، المفعمة بمختلف الألوان، والزاخرة بشتى الصراعات والتناقضات غني بالرموز المعبرة عن العقائد والأحداث، وعن تجربة الإنسان الشعبي وكذلك عن ثقافة وتراث المجتمع بشكل عام.

ويحتاج إلى اهتمام من قبل المجتمع وهيئاته حفاظا عليه من الزوال كهوية بالجمع والدراسة والتحليل والنشر وعبر هذه الخطوات ،يتأكد لنا أن القيام بذلك يكفل للأدب الشعبي أن يتواجد في

حياتنا المعاصرة ويستمر ويحفظ كذاكرة جماعية لا تنضب، وعلى المهتمين والمنشغلين بهذا الجزء من التراث في الجزائر أن يشتغلوا على هذه النقطة حتى نحافظ على أدبنا الشعبي في خضم الحياة المعاصرة المتداخلة والوافدة التي بإمكانها القضاء على الكثير من عناصر الثقافة المحلية.

المراجع:

(1) Ch. Ougoug- Kezzal, " Réflexions sur la littérature orale ", Il Insan, Alger, APE, N1, 1983.

(2) سعيدي، محمد، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1998.

(3) عيلان، محمد، " التراث الشعبي الجزائري مفاهيم وممارسات "، مجلة التواصل، العدد 4، الجزائر: جامعة عنابة، جوان 1999.

(4) Grèsle François et Autres, Dictionnaire des sciences humaines, Paris, Edition Nathan, 1990.

(5) بدير، حلمي، أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، الإسكندرية: دار الوفاء، 2002.

(6) نمر حسن، حجاب، " التراث الشعبي علم وحياة "، مجلة الثقافة والتراث القومي، العدد 4، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1992.

(7) التلي، بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830-1945.

(8) النوايسة، نايف، " الوطن في المأثور الشفاهي العربي "، مجلة الثقافة الشعبية، مصر: المركز الحضاري لعلوم الإنسان والتراث الشعبي، أفريل 2002.

(9) خورشيد، فاروق، أدب السيرة الشعبية، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002.

(10) السويدي، محمد، محاضرات في الثقافة والمجتمع، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1984.

(11) إبراهيم أحمد، شعبان، الشعب المصري في أمثاله العامية، مصر: الهيئة المصرية للكتاب، 1972.

(12) الجوهري، محمد وآخرون، دراسات في علم الفلكلور، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1992

(13) حريز، حامد، مجلة الثقافة الشعبية، مصر: المركز الحضاري لعلوم الإنسان والتراث الشعبي، أفريل 2002

(14) حرب، طلال، أولية النص: نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1999.

(15) السويدي، محمد، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1984.

(16) توفيق، زياد، عن الأدب الشعبي الفلسطيني، بيروت: دار العودة، بدون سنة.

(17) العربي، رابح، أنواع النثر الشعبي، عنابة: جامعة باجي مختار، 1989.

(18) سعيدي، محمد، " أشكال التعبير الشعبي والوعي الوطني "، مجلة المجلس الأعلى للغة العربية، أعمال الملتقى الوطني حول مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، تيارت، الجزائر، 14/13 أكتوبر 2002.

(19) الجوهري، محمد وآخرون، مقدمة في دراسة التراث الشعبي المصري، ط1، القاهرة، 2006.

(20)P. Saintyves, Manuel de folklore, Paris, Librairé Emile Mourry, 1936.

(21) يعقوبي، لوسي، لغة الأدب والشعر في كتابات المرأة العربية، مصر: مكتبة الدار العربية للكتاب، 2001.

(22) قاسم عبدو، قاسم، " المأثور الشعبي هل يبقى ؟ "، مجلة العربي، العدد 511، الكويت: وزارة الإعلام الكويتية، 2001.

(23)Certeux. A, E. Henry carnoy, A'lgérie traditionnelle, Alger, Imprimerie de l'Association ouvriere, P. Fontana et cie, Tome1, 1984.

(24) Bouvrie jean claude, Tradition orale et identité culturelle, Paris, Edition de centre nationale de recherche scientifique, 1980.

(25) Sébillot paul, Le folk-lore (littérature orale et ethnographie traditionnelle), Paris société Française d'imprimerie, 1913.

(26) Chadli Elmostapha, Le conte populaire dans le pourtour de la méditerranée, Les éditions de la méditerranée, Alif, (Tunisie), Idi-suiel (France) Toubkal (Maroc), 1997 .

(27) رشدي صالح، أحمد، الأدب الشعبي، مصر: مكتبة النهضة المصرية، 1971.

(28) قريش روزالين، ليلي، القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1980.

(29) الجوهري، محمد، الدراسات العلمية للمعتقدات الشعبية، الجزء 1، الإسكندرية: دار المعارف الجامعية، 1993.

(30) إبراهيم، نبيلة، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، مصر: دار النهضة، بدون سنة.

(31) بورايو، عبد الحميد ، البطل الملحمي والبطلة الضحية في الحكاية الشعبية الجزائرية، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ، 1998.